اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

(تابع)

الفصل الثالث

سأقص الحوادث التى أصبت فيها أولا بداء العصر :

بعد أن مرت الساعات فى ليلة راقصة ، جلست إلى مائدة مع أصحابى ، وقد ارتدوا أفخر ملابسهم ، والقاعة تفص بالشبيبة الفضة تشع مرحا وجمالاً ، وعلى جانبينا موائد عديدة تحمل أفخر الطعام والشراب ، تغمرها الأنوار وتكللها الأزهار ، والموسيقى تملأ القاعة بصخب الأنغام ؛ وكانت على المقعد المقابل لمقعدى الخليلة الرائعة الجمال التى أقمتها معبوداً لقلبى

وكنت وقتئذ فى التاسع عشر من ربيع الحياة ، وما كنت عرفت شقاء ولا ابتليت بداء ، وكنت أنوفاً لا أعرف الصانعة وفؤادى طافح بالآمال

وفعلت الخمرة فعلها فى عروقى ، فبدأ كل ما حولى كأنه موسوم بطابع المرأة التى أحب . ففى مثل هذه النشوة تلوح الدنيا للعاشق جوهرة

تتألق باسم المحبوب من كل جهاتها ، فيكاد المثل يقبل كل من يبتسم له ، إذ يشعر بأنه أخ لكل مخلوق فى الوجود

وكانت خليلتى قد ضربت لى موعداً الاجتماع بها بعد انقضاء السمر ، فكنت أرفع الكأس إلى شفتى ولحاظى تغور فى أحداقها

وأدرت ظهرى للمائدة لأتناول طبقاً فسقطت الشوكة عنها ، وحين انحنيت لأرفعها عن الأرض مزيحاً الغطاء المتدلى ، رأيت قدم خليلتى مشتبكة بقدم الشاب القاعد بقربها ، وكانت الساق على الساق تشد إحداهما الأخرى

جلست بكل هدوء ، وطلبت شوكة غير التى سقطت وعدت إلى تناول طعامى ، وكانت خليلتى والشاب محتفظين بالسكون التام ، فلا ينظر أحدهما إلى الآخر ولا يتحادثان ؛ بل كان الشاب متكئاً على المائدة ، وقد أدار وجهه إلى جارة له كانت تريه

عقدها وأساورها ؛ وكانت خلياتى جامدة ، وقد شخص بصرها وتراخت على مقعدها ، وما انقطعت لحظة عن مراقبتها إلى نهاية الطعام ، فلم تبدر منها بادرة تنم عن حالها

وعند ما قدم الخادم الحلوى ، زحلفت المنشفة وانحنيت لأخذها عن الأرض فرأيت الساقين وهما لم يزالا يتشادان مترابطتين ، وكنت وعدت خلياتى أن أرافقها بعد الطعام إلى منزلها ، وما كان ما يحول دون ذلك ، وهى أرملة وليس لها إلا صهر طاعن فى السن يرافقها أحياناً إلى المجتمعات ؛ وبوصولنا إلى الدهليز أمام المخرج وقفت وقالت : (هيا بنا يا أوكتاف) ، فقهقهت ضاحكا ، وخرجت دون أن أفوه بكلمة

اندفعت إلى الشارع ؛ وبعد أن مشيت خطوات جلست على قارعة الطريق واجماً كأنى أصبت بالمته من خيانة هذه المرأة التى لم تثر غيرتى يوماً ولا نبهت شكوكى ، وما كان الذى رأيت ليترك فىّ أقل ريب ، فأصبحت لذلك كمن فوجئ بضربة فأس على أم رأسه . ومرت الساعات وأنا جالس على الحجر تمر بذهنى أمور لم أكن لأذكر منها شيئا فيما بعد . غير أنى رأيت شهابا يتألق فى السماء فرفعت قبعتى مسلماً عليه ، والشعراء يرون فى كل شهاب هاو عالماً يندثر

ورجعت بكل سكون إلى منزلى ، وأنا لا أعى وبدأت أخلع أثوابى ، ثم انطرحت على سريرى ، وما ألقيت رأسى على الوسادة حتى استولت علىّ فكرة الانتقام ، فانتفضت وجلست ، وقد توترت عضلاتى فأصبحت كقطعة من خشب . قفزت إلى الأرض ومددت ذراعى وبدأت أصرخ ، وما كانت أصابع رجلى تلمس الأرض لشدة تشنج أعصابى . ومرت علىّ ساعة وأنا على هذه الحالة من الهياج والجنون ، وكانت هذه أول نوبة غضب شعرت بها فى حياتى

وكان الرجل الذى باغته مع خلياتى من أعز الأصدقاء علىّ ، فذهبت إليه فى اليوم التالى وقد استصحبت شاباً يُهن المحاماة اسمه (ديجنه) ؛ فأخذ خصمى لنفسه شاهداً آخر وتوجهنا جميعاً ومعنا الأسلحة النارية إلى غابة فنسين ؛ وكنت أثناء الطريق أتحاشى توجيه الخطاب إلى خصمى أو الاقتراب منه ، كيلا أندفع إلى شتمه أو ضربه إذ لم يكن من موجب لهذا الاعتداء ما دام القانون يجيز لنا الاشتباك بمعركة منظمة ؛ ولكننى ما كنت أمتلك نظراتى من التوجه إليه ، وكان هذا الشاب من أصدقاء الصبى ، وقد تبادلنا الولاء طوال السنين ، وما كان يجهل علاقتى بخلياتى ، وقد كان صرح لى مراراً بأنه شديد الاحترام لمثل هذه العلاقات ، وأنه لا يقدم على مزاحمة صديق له حتى ولو برح العشق به . وكانت ثقتى شديدة بهذا الصديق ، وقد لا أكون صافحت يداً بمثل الولاء الذى كنت أضمره له . وحدقت ملياً فى الرجل الذى سمعته يتكلم عن الصداقة كأنه أحد الأبطال الأقدمين ، ثم رأيته بعد ذلك يتمتع بخلياتى ؛ فاذا هو فى عينى أول مسخ أصادفه فى حياتى ؛ فكنت أثبت النظر فيه لأرى كيف تكون المسوخ ، وكان يخيل إلى أننى لم أر قط هذا الرجل الذى عرفته وهو فى العاشرة من عمره ، فمرت بنا الأيام من ذلك العهد توثق روابط الولاء بيننا ، وإننى لأورد هنا تشبيهاً ينطبق على حالتى :

إن فى رواية إسبانية معروفة مشهد شخص من حجر يرسله المدل الآلهى ليتناول طعام العشاء مع رجل عاهر ، فيتجلد هذا الرجل كيلا يلمح جليسه اضطرابه ، ولكن الجليس يتقدم لمصافحته ، وعندما يقبض على يده يشعر الرجل بصقيع الموت ويرتعش حتى يفقد شعوره

ولقد كنت طوال حياتى كلما تكشف لى صديق أو خليلة عن غدر وخديعة أشعر بما لا أجد له شبيهاً سوى مصافحة يد التمثال ، فكأنى كنت أقبض حقيقة على يد من رخام تشعرنى بصقيع الحقيقة المروعة

تلك هى مصافحة اليد الباردة . ولكم طرقت بابى وأصدقاء ، ولكم نزل الرجل الحجرى فى ضيافتى فتناولنا العشاء معاً !

وعت المدات فوقفت من خصمى موقفه منى وتقدم كل منا ببطء نحو الآخر ؛ وأطلق هو النار أولاً فأصابنى فى ساعدى الأيمن ، فتناولت السلاح بيدى اليسرى ، ولكن خانتنى القوى فجثيت راكعاً على ركبة واحدة . وعندئذ رأيت خصمى يتقدم إلى بسرعة وقد امتقع لونه وبدت عليه دلائل الاضطراب الشديد ، وتراكض الشاهدان فأبعدها هو وقبض على يدى الجريحة وقد صرف بأسنانه واختنق صوته فرأيت الألم يرتسم على وجهه بأشد مما كنت أشعر به

فصحت به : إذهب عنى ، إذهب إليها وامسح يدك بغطاء فراشها . وبقينا كأن على صدر كل منا حجرا

ونقلت إلى عربة حيث عاينى طبيب فوجد أن الجرح غير خطر لأن الرصاصة كانت استقرت بعيداً عن العظم ؛ غير أنى كنت أعلل إلى درجة جعلت كل محاولة لتضميد الجرح مستحيلة . وعند ما تحركت العربة للمسير رأيت يد خصمى قابضة على عارضة الباب وهى ترتجف ؛ وكنت أشعر أنه مخلص فى ندمه ، ولكننى لم أكن بحالة تمكننى من التغلب على ثورة أعصابى لمنحه الغفران

ولما وصلت إلى مسكنى كان قد نزف من دمى ما يكفى لتهدئة فوران الغضب ، وكان أشد على من آلام جرحى استلقيت على فراشى مرتاحاً وتناولت من الماء كأساً لم أشعر بلذة مثل لذته فى أية كأس شربتها فى حياتى

وبعد برهة شعرت بنار الحمى فتساقطت دموعى وتساقط الأسى على ، لا لتحول خليلتى عنى بل لأقدامها على خداعى . وهل يسهل على أن أدرك السبب الذى يحفز امرأة لا يقيدها واجب ولا غاية بادية إلى مخادعة رجل وهى تحب سواه

وكنت أعلن استغرابى هذا لديجنه عشرات فى اليوم فأقول له :

— لو أنى كنت زوجاً لهذه المرأة ، أو لو كنت أبذل المال لها لكنت أفهم سبب خيانتها . فما الذى كان يصدها يا ترى عن إعلان انتهاء حبها لى ؟ وما الذى دعاها إلى خيانتى ؟

وما كنت أتصور وقوع الكذب فى الغرام . كنت لا أزل فى شرخ الشباب فى ذلك الزمن ؛ غير أنى أعترف بقصورى حتى الآن عن إدراك هذا السر . ولقد كنت كلما أحببت امرأة أعلن لها حبى ، وكلما شعرت بزوال الحب أعلنه أيضاً ، إذ كنت أعتقد أن مثل هذه الأمور لا سيطرة لإرادتنا عليها ، وأن لا جريمة إلا فى الكذب

أما ديجنه فما كان يجيب على كل هذا إلا بقوله : إنها لشقية . فعدنى ألا تنظر إلى وجهها فيما بعد

وكنت أقسم له باتباع نصيحته . وقد أشار على فضلاً عن عدم مقابلتها ألا أكتب اليها حتى ولو بقصد توبيخها ، وألا أحاورها إذا هى كتبت إلى . وما ترددت فى وعده بما أراد وأنا مندهش بل متألم لمرة نفسى لاقتراضه إمكان مخالفتى لهذه الخطة الرشيدة

ولكننى ما تمكنت من النهوض من فراشى ومبارحة غرفتى حتى هرعت إلى منزل خليلتى فرأيتها وحدها على مقعد فى غرفتها وقد ظهر التعب على ملامحها والاعمال فى ترتيب أثوابها . فاندفعت أشبعها لوماً وتقريعاً ، وقد بلغ منى اليأس أقصاه . فكنت أصرخ بملء صوتى ودموعى تتساقط بغزارة ، وخنقنى الزفير فانطرحت على السرير وأنا أقول : لقد كنت تعلمين أن حياتك تقضى على أيتها الخائنة الشقية ؛ فهل لذت لك هذه الجناية ؟ وما هو ذنبى إليك يا ترى ؟

أما هى فانطرحت على ثمانقى قائلة : لقد اندفعت بالرغم منى لأن ذلك الشاب كان قد أسكرنى على المائدة ؛ ولكننى لم أستسلم إليه ، بل كل ما وقع هو أننى تراخيت فى ساعة ضلال . ولقد أكون أخطأت ولكننى لم أرتكب جرماً . إننى أقدر الضرر الفادح الذى أنزلته بك ، ولكننى أطمع فى عفوك ، فأذا أنت منعته عنى قتلتنى

وما ادخرت شيئاً من دموع التوبة الصادقة ولا من فصاحة الألم توصلاً لتعزيتى ، وارتمت على ركبتيها فى وسط القاعة وقد امتقع لونها وتفتق ثوبها وتهدل شعرها ، فرأيت فيها من الجمال ما لم أره من قبل ، فارتعشت كرهاً واشمئزازاً بينما كانت الشهوة تثور فى دمى

خرجت من لدنها وقد تحطمت قواى وصممت على ألا أقابلها أبداً ، ولكننى رجعت إليها قبل مضى ربع ساعة وأنا مندفع بقوة خفى كنهها على ، وقد تسلطت على شهوة التمتع بهذه المرأة مرة أخيرة لأشرب على جسدها الرائع الجمال كل ما ذرفت من مرير الدموع ولأنتحر بعد ذلك

كنت أكرهها وأعبدها ؛ كنت أشعر أن غرامها يوردنى الهلاك ، وأشعر أيضاً أننى لا أقوى على الحياة بدونها . صعدت إلى غرفتها بسرعة السهم المنطلق دون أن التفت إلى الخدم فى طريق ، ودفعت باب غرفتها فجأة فرأيتها جالسة إلى المرآة وقد تحلت بجميع جواهرها ، وكانت وصيفتها واقفة وراءها تمشط شعرها . تخيل الى أننى أشهد حلماً ، إذ امتنع على أن أتصور أن المرأة التى أراها أمامى هى المرأة نفسها التى كانت منذ هنيهة ساقطة على الأرض تحت وقر آلامها

تحجرت كالتمثال مكانى ، وعندما سمعت انفتاح الباب التفتت وقالت قبل أن ترانى : أهذا أنت ؟ !

وكانت تنتظر خصمى ليذهب بها إلى مرقص . وإذ عرفتنى قطبت حاجبيها وتبرمت . وتراجعت قاصداً الانسحاب ، ولكننى رأيت رقبتها الناعمة وقد عقص عليها شعرها وربط عليه مشط من الماس ، والتفت فوقه خصلتان ركزتا بسنبلتين من الفضة ، ولاح كتفاها وعنقها بأنصع بياض ؛ فكان شعرها المعقوص مرتفعاً لبدة أسد تهزأ

بالمشهد الذليل الذى وقفت عنده منذ هنيهة .

وبعد لحظة ثم تقدمت لجأة إلى هـذه المرأة وأنزلت بقبضتى ضربة قاسية على رقبتها فلم تصرخ بل سقطت إلى الأمام مرتمية على يديها . وعندئذ أسرعت بالانصراف

وما إن وصلت إلى منزلى حتى عاودتنى الحمى بشدة ، فلزمت الفراش وقد نكأ جرحى فآلمنى كثيراً .

وجاء ديجنه لعيادتى فأطلعته على ما جرى ؛ وبعد أن أصغى إلى بكل هدوء أخذ يتمشى فى الغرفة كمن عزم على أمر يتردد فى تنفيذه . وأخيراً وقف أمامى وأطلق ضحكة عالية وقال :

— أهذه المرأة أولى خليلاتك ؟

فقلت : — لا بل هى الأخيرة

وعند منتصف الليل بينما كنت مستغرقاً فى نوم المضطرب خيل إلى أننى أسمع تنهداً عميقاً ، وإذ فتحت عينى رأيت خليلتى واقفة قرب سريرى وقد شبكت يديها على صدرها كأنهـا شبح من العالم الثانى ، فما ملكت روعى فصرخت حاسباً أن ما أراه خيـال جسمه دماغى المحموم ، فنهضت مذعوراً وهربت إلى زاوية الغرفة ولـكنها تبعتنى وقالت . : أنا هى . وضمتنى إليها فصحت بها : — ماذا تطلبين ؟ دعينى وشأنى وإلا قتلتك

فقالت : — لك أن تقتلنى فانى خنتك وكذبت عليك ، وما أنا إلا شقية حقيرة ، ولـكننى لا أطيق الحياة بدونك

ونظرت إليهـا فاذا هى مجسم الجمال ، وقد ارتعشت أعضاؤها واشتعلت عيناها بنيران الشهوة ؛ وكان عنقها عارياً وشفتاها تحترقان ، فطوقتها بذراعى وقلت لها :

— ليكن ما تريدين ، ولـكننى أقسم بالله الذى يرانا ، وبروح أبى أننى سأقتلك وأنتحر بعدك

وأخذت خنجراً كان على رف الموقد ودسسته تحت الوسادة فابتسمت وقبلتنى قائلة : — ما لك ولهذه الحماقة يا أوكتاف ؟ تعال إلى ! إنك ترهق نفسك وأنت محموم ، أعطنى هذا الخنجر

ولما رأيت أنها تحاول أخذه قلت لها :

— إصغى إلى . إننى لا أعرف من أنت ولا أية منزلة عندك ؛ أما أنا فليس من المنازل ما أفعل . لقد بلغ حبى اياك أقصى حد يصل إليه حب إنسان على الأرض فكان ذلك اشقائى وموتى ، فاعلمى أننى لم أزل أتفانى فى هواك . تقولين إنك تحبيننى أيضاً فأنا أطاوعك فى رغبتك ، وأقسم بأقدس ما فى الـكون بأنى إذا ما اندمجت بك هـذا المساء فلن يامسك أحد سواى غداً . سأتمتع بك أمام الله إذا مارضيت ، ولـكننى سأقتلك قبل انفلاق الصباح

وارتميت على الأرض مرتعشاً ، فرأيتها تلقى معطفها على كتفيها بسرعة وتولى الأدبار

وعند ما أخبرت (ديجنه) بهذه الحادثة قال لى : ولماذا رددتها ؟ إنها لجميلة حقاً . فهل بلغ كرهك لها إلى هذا الحد ؟

فأجبته : أمازح أنت ؟ وهل لهذه المرأة أن تكون خليلتى بعد الآن ؟ وهل تعتقد أن بامكانى أن أشترك فيها مع سواى ؟ أفلا تذكر أنهـا أقرت بتمتع غيرى بها ؟ فهل بعـد ذلك تريد أن أنسى وأستبقى حبى لها وأتمتع بها أيضاً ؟

(يتبع) نقيكس فارس